

كل شيء على ما برأه

للاستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

الخواوية مصباح بلا زجاجة ، مخنوق الأنفاس
كأنه يختصر ، يحتم بينه وبين الحائط وعاء
من النحاس مهيب الظاهر ، وكوز من
الصفير . ويرعى قلبهما على الحائط القديم
كالخبيثا يرتجف بالرجاف الذبالة . وحصير
مفروش اقترشه صبيان كنت أحدهما ،
ومن فوقنا غطاء غليظ من صوف الغنم
تخرق في عدة مواضع ، وكانت رجل أخى
النائم خارجة من أحد هذه الخروق . وحالة
للثياب عليها بعض خلتان . وأشياء أخرى
لست أذكرها الآن . وشئ أخير لم أنسه
لأنه أعم من كل ما رأيته . . ذلك هو شبح
أبى !

كانت مترمة في جلستها كالتي فرغت
من الصلاة ، رافعة وجهها إلى السماء
وكفها مبسوطة . كانت تدعو وتبتهل
وكان دعاؤها متهدجا غامضا معذمة همس ،
لكنه يبعث في القلب رغبة وخاوف .
ولعل أقوى سبب لما أحسسته من دعاها
أبى لثقت فرأيت مكان أبى من الحجرة

رأيت الذين تحتذيهم الأخطاء إليها
وهم راغمون يخرسون كل الحرص على أن
يجنبوها سواهم من الأجيال ما استطاعوا
إلى ذلك سبيلا .

وكانت هذه هي قصتي مع أبوى . .
قصتي التي جعلت أستميد أحداثها حلقة
حلقة حتى قطعها على انفجار أعقبته طلقات
مدافع رجفت بها الأرض وقعفت السماء ،
ثم تاهبت الإسكندرية بعدها لتقامي ليلة
من ليالى الهول ، في تلك الحرب الأخيرة

أما نقطة البدء في القصة فإنها ترجع
إلى خمسة عشر عاما . ليلة أرقني شئ لست
أذكر كنهه . كنت إذ ذاك غلاما في
العاشرة لأبوين ريفيين يجرى بهما مركب
الفقر في خضم الوجود ، فلا تكاد شبكتهما
تخرج بما يحفظ عليهما الحياة . ووقعت عيناى
الثتان أتلفهما النوم على منظر جاشت له
نفسى في تلك الليلة :

كان هناك على قبة الفرن في الحجرة

خالياً ، وعرفت أن الليل قد تقدم نحو
الصباح من تصايح الديكة على سطحننا
وسطوح الجدران

وكان دعاؤها ينقطع بين الحين والحين
حتى إذا ما استأنفته بدا أنه مخنوق بالدموع ،
وكان منديل رأسها ، متأخراً إلى الوراء ، فهو
على وشك السقوط لولا أن الضفائر ممسكة
به ، فبدت حاصرة الرأس كأنها جرزعة أو
كأنها موشكة على الصراح

وفي دعاؤها عبارة ترداد كثيراً كانت
تطلب بها من الله السر . ثم كفت برهة
وخرجت إلى باحة الدار كأنما انفتش عن شيء ،
فأناحت لي فتحة الباب أن أسمع هواء
الخریف الأرعن وهو يماثل أعواد الحطب
على أعالي الجدران

ثم عادت أمي واستأنفت ما كانت فيه
وعدت أنا إلى التأمل والاستغراق والتفكير
في الموقف ومرافية الظلال الداكنة على
الجدار القديم وهي تراقص بتراقص التباله
وأناظر إلى رجل أخى الخارجة من الغطاء
المحروق ، ها كتم صمكة تراودني وأينها
غير منسجمة مع كآبة ما تقع عليه عيناى
وسمعت طرقة على الباب الخارجى
أيقنت معها أن الموقف في طريقه إلى الوضوح
وأن الغمة قاربت أن تنكشف . وخرجت
أمي تتعثر في أذيالها لتفتح ، وانفراج باب

القاعة مرة أخرى ، فتناهى إلى سسمى أزيز
الحطب . ثم دخل الشيخان من باب القاعة
ثم أغلق الباب . . ثم ارتجت الأرض من
رمى شئ ثقيل كأنه حمل ، ثم سمعت أنفاس
الرجل مضطربة مبهورة . . ولم أستطع بعد
ذلك أن أنبين ما حولي بتفاصيله ، لأن
المصباح انطفأ عند دخول أبوى وانفتاح
الباب فتحة كاملة سمحت لتسليم الليل أن
يتدفق نحو الداخل

وجعلت أمي تفتش عن علية الثقاب
فلم تهتد إلى مكانها فسمعها تهمس لأبى
قائلة : لا داعى للمناء ، ما عدنا بحاجة إلى
النور . . هل سننظم عقدا ؟ .. لا .. ولا نحن
سنفرز ذهباً من فضة . ولم يرد عليها أبى
بكلمة لأن أنفاسه لم تعد سيرتها الأولى .

وسعل مرتين أو ثلاثاً ثم اطمان . وخيم
علينا سكون كأنه قطعة من الأبدية ، وصاح
ديك في الخارج ومد صيحته في تأنيق
وإصرار كأنما يؤكد للناس أنه رأى وجه
النهار ، فسمعت عندئذ أبى يتهد ويقول :
الحدثه . . وصلنا في الوقت المناسب .
قالت أمي : وهل وجهك ظهر لك ؟ فأجاب :
قليلاً بالنسبة إلى ثقل الغرارة . . لم أكن
آمل أن أعود بهذه السرعة لأن الرومانم
قما على في الشهر الأخير ! قلت أمي لم
أفتر لحظة واحدة منذ خروجك عن أن

سجن لأنه سرق وكنا نغير ابنه به إذا
ما شرس علينا أو تكبر أو اعتدى .. ثم ..
لغنى النوم كما يلف كل الأحياء

وفي صبحي اليوم التالي رأيت أمي تقشر
الذرة بوجه باسر وأعصاب هائجة . كانت
كأنها تجهز ميتا لا تجهز طعاما . وكنت
أدنو منها وأنظر في عينيها فلا أرى فيها
إلا ثمة وثورة وثوقا لكروه

على أن ذلك كله لم يمنعنا عن الطحن
والخبز وأكل الحرام لأن البطون لا تعترف
بمعجز الأيدي كما قلت لك . ولم أستيقظ في
الليل مرة أخرى ولكنني رأيت في النهار
ذرة تقشر فأيقنت أن أبي عاود السطو لأنه
لا يزال عاجزا عن حمل القأس ولم يستدعه
أحد . فمن أين تأتينا النقود؟! وأخي صغير
وأنا لا أساعد أبي لأنني في المدرسة ويعتني
أبي أن أحفظ القرآن

وناشجرت مع مبارك بن شعبان ليلة
من الليالي فضربني لأنه أقوى مني ثم فر إلى
دارهم حتى لا يدركه النار ، فدخلت على
أبوي ساخبا با كيا فلما سألتني ما خطبني
قلت لهم إن ابن (الحرامي) ضربني وجري
فأحسست أن أبي يسترضيني بالذباية عنه
كأنما يريد أن ينهي الموضوع . لكن
ثورتي كانت لا تزال حادة مشبوبة فقلت

أطلب من الله السر ، وأحد الله فلتد
استجاب . قل أبي وهو يغالب ضحكة :
هذا هو نفس ما فعلته في الختل وأنا أخلع
(كيزان) الذرة من الأعواد لأضعها في
النراة ، كنت أطلب منه السر أولا
والهفو ثانيا ، غير أني كنت أخشى شيئا
واحدا وأنا أطلب السر ، وذلك هو أن
يكون صاحب الختل قد طلب من الله
نفس الطلب ، وأن يكون الله قد استجاب
فتبع الكارثة وأضبط متلبسا بجريمة السرقة
وأخذت الأمور تتضح أمام بصيرتي
وأنا مستلق على ظهري تحت النطاء القديم
فرجعت إلى المسألة من أولها :

إن أبي عاجز منذ شهرين عن أن يحمل
القأس لذلك فإن أحدا من الناس لا يستدعيه
ليعمل في حقله بالأحر . الروماتزم الزمن
سبطر على ظهره ... في موضع الحرام تماما
فأقدمه عن الكسب . ولما كانت البطون
لا تعترف بمعجز الأيدي عن تحصيل القوت
فلا تكف عن الطلب فإن الرجل لجأ آخر
الأمر إلى أن يسطو على حقل غيره في ظلمة
الليل ، ولم يستطع الروماتزم أن يقدمه عن
حل غمارة ثقيلة والسير بها مسافة طويلة
قلت بيني وبين نفسي : كان أبي يسرق!

أجل . كان يسرق مع أن السرقة (عيب)
بدليل أن (شعبان) والد زميلي (مبارك)

في القرية آمنت عسيرة لأننا أحسننا أنا
فقدنا شيئا تتمتع بالحياة بدونه ، وذلك هو
الشرف

وأقدمت أمي على عمل حاسم فإنها
رحلت بنا إلى الإسكندرية حيث بعض
أقاربها هناك ونجح مسعاها فاشتغلت خادما
في أحد المستشفيات ، وودعنا القرية في
غياب أبي حتى إذا ما قضى مدة الحبس لحق
بنا . وألفيناه متعبا مكثودا وبقي كذلك
فترة من الزمن ثم زاول في المدينة عملا
لا يحتاج إلى تعلم . . . عملا قريبا من حفو
الأرض أو حمل القناس وإن كان وظيفته
« مدير » . . . يدير معصرة قصب في أحد
الدكاكين وبلبس « مريلة » على الجلباب
ويرفعه عن الأرض قبقاب عال ويستعمل
المكنسة بين آن وآن وينقل الأعواد قبل
العصر وبعده إلى الداخل والخارج

وجعل أبواي بعد هذه الحادثة يلتقنا
في كل مناسبة أن الجوع خير من السرقة
وأن السرقة أعلى من الذهب . وتعرضت
حياتنا بعد ذلك لأزمات عولجت طورا
بالصبر ، وطورا بالافتراض وطورا بالفراق
من الأزمة بتأجيل حلمها حتى تعرضت أنا
لنفس التجربة فأخذت أستميد كل
ماقصته عليك . . .

حتى قطع على أفكاري انفجار أعقبته

صارخا : أليس أبوه لما ؟ ... ألم يسرق
خروف على النوايا ؟ له يوم !

ولطمعتي أمي على خدي فحملت
مستغريا ... لكنني أفقت !! وسرعان
ما ذكرت أن دارنا من زجاج وإن غاب ذلك
عني . ثم ذكرت ليلة الأرق وما حدث فيها
فأمسكت أنفاسي وكلمت غيظا بجملة
خزي حتى سمعت أبي يقول وهو واضع كفه
على ظهره : لا تعير أحدا يا بني فربما عبرت
معدورا !

لكن الحوادث شامت أن تلقى على
درسا جديدا فلقد التقيت أنا ومبارك بن
شعبان في ملعب الصبيان بعد أسبوع واحد
فما وقعت على عيناه حتى ابتدرني قائلا :
« أهلا بابن أبو غرارة » وضحك الصبيان
وفررت أنا أجرى إلى الدار

أما معنى ذلك فإن أبي ضبط متلبسا
بالسرقة وكان منظره في تلك الليلة بشير
الضحك والدموع فقد أرى صاحب الحقل
إلا أن يسوقه إلى المحفر وهو يحمل السروق
فراى الناس رجلا متألما خزيان باكيا يمسك
الفرارة بيد ويمسك موضع الألم من ظهره
باليد الأخرى ، ويتاق اللطافات والركلات
والشتمات صامتا صابرا !

ثم لقي النهاية الطبيعية التي يلتهاها كل
خارج على القوانين الموضوع . لكن إقامتنا

واستولت على الفكرة فمجبت لنفسي إذ
رأيت فيها شابا يحرس المال من غيره ثم
لا يدفع عنه عدوان يده ، ففجئت

وغابت عني كل الصور إلا صورة
واحدة -- صورة رجل يمسك غرارة بيد
ويمسك ووضع الألم من ظهره باليد الأخرى
وهو مسوق إلى مخفر الشرطة . ثم صورة
أمرأة هاجرت من القرية لأنها فقدت شيئا
تعدرت عليها الحياة بدونه . انتهدت .
وكانت الفرقعة قد كفت منذ مدة وأطلقت
صفارة الأمان فأنشئت الأنوار

ودخلت إلى المحل وجعلت ألتفت في
كل صوب لأطمئن على ما فيه ، ومضت برهة
رأيت بعدها صاحب المال واقفا على العتبة
وهو يسأل مخلصا آمنا : هل كل شيء على
مايرام يا سديقي ؟ فأجبت باعتزاز الشرفاء :
أجل ... أجل ... كل شيء على مايرام !

محمد عبد الحليم عبد الله

طلقات مدافع ، ثم تاهت الإسكندرية
بعدها لتفاسي ليلة من ليالي الهول ...

وكان أبي طريح الفراش والأسرة في
حاجة إلى أشياء كثيرة ، وكنت وحدي
في المحل التجاري الذي أعمل فيه بعد أن
تركني صاحبه أول الليل لثقتي بي ، والحاجة
عرضت له . وكل شيء أمامي ... حتى
المال !!

واستبدت بي الأمور وضيق الحاجة على
الخلق ، وبدأت أقنع أن البطون لا تعترف
بعجز الأيدي وأنه لا بد من الإقدام .
وهمت وأنا أطلب من الله السر ! لكن
المدافع أطلقت وأصبح من الحتم أن أطفئ
الأنوار ، فساد الظلام !

ولشد ما تغيرت بعد ذلك فكري عن
الموضوع . أزلت نصف الباب ووقفت في
بقية الفتحة أرى الأمانة وقد خيل إلى أن
لعوصا عديدين سيهاجمون المحل وأن من
حق صاحبه على أن أدفع عنه أيدي الراغبين

